

# كائنات كوكبه الآخر

## همدان دماج

غريبة هي المدينة هذا اليوم. بالأمس كانت شوارعها مزدحمة بأناس مختلفي الألوان والأشكال، بل وبكائنات الكوكب الآخر. وها هي اليوم خالية مثل كراسه واجبات منزلية. فبناياتها متربة وهرمة، وشرايينها جافة ومشققة، ولم هناك يعد ما يتحرك داخل أزقة قلبها الذي توقف عن النبض.

كان قد لاحظ البارحة أن قوس قزح بلا ألوان عندما امتلأت الساحة المدرسية بمخلوقات الكوكب الآخر التي كانت تعبث بكل شيء. حتى "محمود"، محاسب المقصف، ذو الحذاء المثقوب، أصبح كائناً بأربع عيون، يراقب بدقة السندويتشات المجاورة للشباك، وأصبحت له أيادي أخطبوط، وأصابع كثيرة تعد النقود بسرعة، وفم ضفدعة ذو رائحة كريهة، يفتح باستمرار ليسأل

عن "الباقى"، وبتلع بسرعة من يتأخر عن الدفع. "الحياة صارت مخيفة!"، حدث نفسه وهو يكاد يتقيأ من الدوار الذي لم يعرف من أين جاء. كان ذلك بالأمس. لكنه اليوم لا يرى من حوله شيئاً يتحرك سوى أشباح البنايات الطويلة المهجورة التي عانقت سرة الكون الكحلي الذي بدأ يتساقط مثل سقف منزله الطيني عند سقوط الأمطار.

ركض آلاف الأميال، ونقل بصره بسرعة في كل الأرجاء. فتش بأصابعه المرتعشة كل الشوارع. قلب صفحات المدينة لكن دون جدوى. "ليس ثمة شيء يتحرك". حلق مرة أخرى، لكنه لم يجد سوى صمت رخامي؛ فتشهد بأسى:

- أين ذهبوا؟!

أحس بوحدة موحشة، فانهارت للتو دموع ساخنة على وجنتيه الخشنتين من برد الشتاء، وأجهش باكياً.

\* \* \*

رددت جدران الفصل الدراسي نحيبه الطفولي، فاستيقظ من حلمه مذعوراً. رفع رأسه عالياً وجال بنظره أرجاء الفصل

الدراسي الخالي إلا منه ومن أوساخ يوم دراسي طويل. مسح بأصابعه المتسخة دموعه بجنل، وحك بقوة جلده المدمى من لدغ البعوض المتكاثر بصوته المزعج.

- لقد رحل الجميع ولم أنتبه!

حتى أصدقاؤه "عليهم اللعنة!" تركوه نائماً ولم يوقظوه.

- السفلة!

قالها بجنق، وجمع أقلامه المتناثرة بعنف، وكدس دفاتره الممزقة في حقيبته الجلدية بعشوائية وأحكم غلقها. كانت عفونة حذائه قد أزعجته، فنهض بتأفف وأحس بقدميه تنزلقان داخل حذائه الرياضي المزوج بغبار المدينة وبعرق رجليه الكريه. طارت أمام عينيه بتكاسل بعوضة مثقلة ذات طنين مكتوم فضغطها على جدار الفصل المليء برسومات تعليمية، فتناثر من بين أصابعه الغليظة دم أسود.

- إنه دمي أيتها العا...!

عقد حاجبيه وتمتم بغیظ. لكن سرعان ما ارتسمت على شفطيه ابتسامة طفولية مزوجة بدهشة مأكرة، عندما تبادرت إلى ذهنه

المراهق صورة "عاهرة" تلدغه. ضحك كثيراً لهذا التخيل الذي ظل يلزمه طويلاً، واهتز جسده البدين، ومضى بخطوات فاترة نحو الباب.

\* \* \*

استقبلته شمس الخامسة والنصف بفتور ضوئها الناعم، فظل يتأملها بانسجام. وعبرَ ساحة المدرسة الترابية، وتذكر أنه الخميس، وأنه سيجبر دون شك على أخذ حمامه الأسبوعي، فظل يفكر بحيلة يائسة للهروب من هذا "المأزق"، بينما كانت قدمه تنزلقان داخل حذاءه الطيني، تركلان علب العصائر الفارغة وتبعدان بحفة ما علق بهما من أكياس بلاستيكية متطايرة. أثارت رياح قوية تراب الساحة، ففر راکضاً نحو الباب الرئيسي لمدرسة "الشعب" النموذجية.

\* \* \*

التقفه الشارع بحنو. كانت رائحة الأسفلت الجديد لاتزال تخنقه. لقد ألفه ترابياً مثل كل شيء في حياته. كان الشارع قد امتلأ

للتو بعمل مصنع الغزل، المجاور بضجيجهم المعتاد. كانوا يمشون في تجمعات مختلفة الأعداد بظهورهم المقوسة، وتقاسيم وجوههم المتعبة، يتكلمون في مجاميع صاحبة، ويتزاحمون على مقاعد المقهى الشعبي على الرصيف المقابل طلباً لقليل من الزاد وكثير من السعادة المتطايرة من دخان "النارجيلات" الصدئة التي اصطفت على رصيفي الشارع.

توقف قليلاً عندما حاذى أحد المقاهي، وبدأ يتحين الفرصة، ثم دلف بسرعة إلى الداخل واختطف إبريق الماء البلاستيكي الموضوع في منتصف أقرب الطاولات، وشرب بسرعة، لكنه كاد أن يَشْرُقَ عندما نهره صوت غليظ من الداخل: "اذهب بعيداً يا ولدا!".

كان صاحب المقهى قد تقدم نحوه بعيونه الأربع ويديه الأخطبوطية، لكنه فرَّ مسرعاً خلفاً وراءه شارع المدرسة الذي سيختنق كعادته بعد دقائق بكائنات مصنع الغزل البشرية وبضحكاتهم ومنادياتهم الساذجة، وتوجه نحو مركز المدينة الضاحج بسيارات النقل الصغيرة ذات المقاعد المتقابلة، وبأضواء

الحلات التجارية المتألثة رغم الغبار الذي يسكن رثة لافتاتها الزجاجية، وبأصوات بائعي الملابس المستخدمة والخردة، الذين زاحموا المارة فبسطوا بضاعتهم على الأرصفة الضيقة.

بدأ جسده البدين، الذي كان ولا يزال محط سخرية زملائه وبنات الجيران، يتلاشى شيئاً فشيئاً في هدير اللحظات المتعاقبة ودقات الساعة العمومية الصدئة، ليغوص في معمعة المدينة المزدهمة بآلاف الأجساد المتعددة الأشكال والألوان، يزاحم في طريق عودته إلى المنزل ققط وكلاب الشوارع الضالة، وصرابير المطاعم الشعبية، وضافع الحارات المظلمة، بل حتى كائنات "كوكبه الآخر" التي تزدهم بها شوارع المدينة الضيقة التي حين يشتد الزحام في قلبها النابض وتتسع الرؤية تتوحد معالمها المختلفة لتبدو من البعيد، ومن بين غبار الزمن الأسطوري، كتلة مضيئة تدور في فلك "درب اللبانة" البعيد، ثم ما تلبث أن تتشكل في هيئة كائن متسق الملامح، مخلوق ناقص التكوين، أو إنسان مثله تماماً.

صيف 1996